# التليسي
## وجه مضيء في الأدب الليبي المعاصر

نجم الدين غالب الكيب

الادب الليبي الحديث هو مخاض لتجارب مريرة خاضها الكاتب على درب الكلمة . فمنذ القديم ، عرفت ليبيا انواعا من الادب واشكالا من الانتاج لا يزال اكثره مغمورا وغير معروف . وقد حاول بعض المهتمين بالتراث ان يكشفوا عن بعض جوانب من ذلك الانتاج ، ولكن جهودهم في هذا السبيل لا تزال متواضعة ومحصورة في بعض الاسماء التي برزت على مدى القرون الماضية . والحقيقة اننا اذ نتحدث عن الادب الليبي المعاصر ، فانما نريد بذلك ان نؤكد بأن المحاولات الجارية في هذا الحقل لم تكن الا حلقة من الحلقات الطويلة التي تمتد عبر القرون الماضية ، غير ان الادب الليبي المعاصر هو ككل الآداب التي نشأت في مراحل عصيبة وتحت ظروف القهر والاستعباد الاجنبي ، فكان الشعر هو السجل المعبر عن الوضع المتخم بأسباب الضغوطات والمعوقات . فقد ولد رواد الادب الليبي الحديث في مرحلة عسيرة اشتد فيها القمع وكرست فيها قوى الشر لابادة الشعب الليبي وحرمانه من ابسط حقوقه الانسانية . وبقدر ما كانت المرحلة حبلى بألوان من الضغوطات والمعوقات ، كانت الاستجابة قوية والنتائج معبرة والاعمال كبيرة .

ولعل خير ما يضرب به المثل في هذا المجال هو شعر أحمد رفيق المهدوي ، واحمد قنابه ، واحمد الشارف ، والاسطى عمر ، وغيرهم ممن تجلت فيهم بواكير العطاء الادبي المعبر عن التصدي للتسلط الاجنبي المشبوب بالمواجهة النضالية لسلطات الفاشي الايطالي . ويشكل الشعر الشعبي رافدا مهما في ادب هذه المرحلة ، غير ان تنوع العطاء الادبي قد جاء مع بداية السنوات الاربعينية حيث تفجرت قرائح الكتاب بشتى الالوان الادبية ، وكان أبرزها هو المقالة السياسية التي راحت تخوض في شتى الموضوعات وتتناول بالنقاش القضايا الوطنية التي يعبر أصحابها عن رؤاهم لليبيا المتحررة من الاستعمار والمتحدثة عن تقرير المصير ( ١٩٤٣ ـ ١٩٥١ ) .

غير ان هذه المرحلة التي تخوض في القضايا الوطنية قد طويت بعد الاستقلال، واتاح هذا فرصة أمام ولادة ألوان ادبية اخرى على يد فئة من الشباب الذين تمرسوا بثقافة جديدة واطلعوا على نماذج من الادب الحديث الذي تضطلع بنشره صحف ومجلات تصدر عن بعض العواصم العربية . وكانت البيئة الليبية من الناحية الثقافية قد خرجت لتوّها من مرحلة التجهيل التي مارسها الايطاليون على مدى سنوات حكمهم الثلاثين ، ولم يكن هنالك الا القليل من النخبة المثقفة ، وكان التعليم محصورا في اطار محدد لا يسمح بتحقيق الطموحات العلمية وان المعارف التي يتزود بها طلاب العلم لا تتجاوز بأية حال المرحلة الابتدائية . وبما ان ذلك كذلك فان المعارف المتواضعة المقررة في المناهج المدرسية لم تكن تعطي من العلم الا بقدر ضئيل جدا لا يحقق الا القليل مما تتطلبه الكوادر الادارية والوظائف الهامشية في اجهزة القمع الاستعمارية .

لكن ليبيا التي عرفت اقسى انواع الاستعمار عتوا واشده بطشا خرجت من بين حطام الحرب العالمية الثانية واخذت تتلمس طريقها معتمدة على طموحات شبابها لانتشالها من براثن الجهل وبعثها بعثا جديدا ، فكان الاغراء يحدو مثقفيها على ابتكار الوان من الادب ، فكان بعضها متاثرا ـ التاثر كله ـ بقراءته لما ينشر في الصحف والمجلات العربية ، فجاء على شكل ارهاصات او صدى لما استطاع المشرقيون ان ينتجوه في النقد ، والشعر ، والقصة القصيرة ، وحتى الطويلة .

في هذا الوقت بدا اسم خليفة محمد التليسي يطرق أسماعنا ويأتينا صوته من بعيد ، لكنه كان صوتا

معبرا وثريا بألوان العطاء ، ولم يكن التليسي الا واحدا من أولئك المثقفين الذين تحدوا الواقع . ولم تكن امكاناته الثقافية المكتسبة الا جانبا في شخصيته المؤسسة على جبلة قوية ورغبة صادقة في مغالبة الصعاب وكسر الجمود الذي يلف الحياة الثقافية . وبهذه الحوافز نراه يحاول أن يشق طريقه في أرض بكر معتمدا في ذلك على محصلاته الثقافية المكتسبة وسعة اطلاعه وافادته من مصادقة الشعراء القدامى والمحدثين ، وكان شعراء المهجر يستأثرون باهتمامه باعتبارهم يقودون تيارا يستشرف عالما جديدا وضع الشعر العربي في مفترق الطرق . فعن طريق ( نسيب عريضة ) و ( فوزي معلوف ) و ( ايليا ابي‌ماضي ) بدأ ينفتح قلبه ووجدانه على‌أشعارهم وتتملكه الدهشة لاندماجهم الرومانطيقي في الطبيعة وسبحاتهم الرقراقة وتهويماتهم الهائمة في ملكوت الشعر ، وتأخذه الدهشة حتى لينتهي به القول : ( بأنه لا يجد ما يشبه هذه العوالم الرفيعة او يدانيها في السمو ) .

وعن طريق هذا النبع الفياض يقف التليسي على ما تجود به قرائح أولئك الشعراء في المهجر ويقارنه بما اطلع عليه من شعر في المشرق ، وتلح عليه فكرة المقارنة فينشيء دراسته الاولى فيما يسمى بالادب المقارن عندما كتب سلسلة من المقالات خصّ بها الشابي وجبران ( ١٩٥٠ ) . وقد استطاع في هذه المقالات أن يبرز اسم الشابي الذي كان ـ وقتئذ ـ ما يزال مغمورا وغير مدروس بما فيه الكفاية ، ولقد استطاع التليسي ان‌يلفت الانظار اليه في مقالاته هذه لما تبشر به من ارهاصات تستشرف عالم النقد وتدخله من أوسع ابوابه .

وظل التليسي مشدودا الى ما يستجدّ في المشرق من تحولات في الادب العربي ، ويطالع في صحفه الادبية الثورة التي يضطلع بها رجال شديدو البأس والسطوة في عالم الادب والفكر والثقافة ، كالعقاد والمازني وشكري وطه حسين والرافعي وزكي مبارك وغيرهم ، وقد اطلع على انتاجهم الذي كان يتراوح بين العنف والشدة والرفق واللين ، ومن خلال هذا الانتاج بدا يلاحظ ان الادب يسير على أيدي أولئك الكتّاب في منعرج جديد مليء بمحاولات البعث والريادة ويبشر بالجديد والحديث . واعتقد ان « الرسالة » و « الهلال » و « الأدب » هي المنابع الرئيسية التي اخذ عنها معظم ما ينشره اولئك الكتّاب الكبار في المشرق العربي وما كانوا يثيرونه من غبار حول قضايا الادب والفن والحياة !

وقد أتيح للتليسي ان يتعلم في المدارس الايطالية ، وفيها تمرّس بلغتهم التي كانت‌مقررة اجباريا في‌مناهجهم المدرسية . ولعل التليسي كان من القليلين الذين استطاعوا أن ينتفعوا بهذه اللغة ، فعن طريقها أطلع على الادب الايطالي وعقد صلة بينه وبين كتّاب كبار ، تلك الصلة التي كان لها تأثيرها في ثقافته ، اذ قلّما نراه يتصدى لموضوع او يعالج قضية او يثير نقاشا دون أن نرى فيها ملمحا او اشارة أو دلالة على ما استوعبه من قراءات جادة وممحصة في لغتها الايطالية .

هذه هي المرافىء التي لجأ اليها التليسي قبل أن يلقي بنفسه في خضم الممارسات الادبية وقبل أن يلقي بشراعه في وجه الريح ليسير في « رحلة عبر دروب غير مطروقة وسبل‌محفوفة بالاشواك وطرق لم تكن آمنة ، ولا معبدة ، ولا تقوم على جوانبها الاضواء والعلامات المرشدة » (١) .

وقد حدثت تحولات كثيرة في الاهتمامات الادبية لدى الادباء الليبيين ، وجاءت‌التحولات بالكثير من‌القضايا المطروحة للنقاش ، فقامت خصومات كثيرة في الصحف والمجلات حول قضايا ( الالتزام في الادب ) و ( الفن للفن أم الفن للحياة ) و ( الشعر الحر ) و ( العامية والفصحى ) و ( القديم والجديد ) ، وقد استطاعت‌تلك المجادلات‌التي اثيرت في الصحافة الليبية حول هذه القضايا أن تحرك الوضع الراكد في الادب ، وتتمكن من هزّه هزا عنيفا فتخرج بعض الاقلام عن عادة التفكير بأسلوب الاقدمين وتفتح الباب امام النقاش الحر المليء بالجدل والحوار البنّاء .

والحقيقة ان هذه المرحلة قد كشفت عن مواهب كانت مغمورة ، وصقلت بعض الاقلام واتت بها الى ساحة الادب لتسهم في وضع اللبنات الاولى في بناء الادب الليبي الناشيء . وفي هذا الوقت حدثت تحولات في اهتمامات التليسي نفسه ، فقد عرف بفطنته ان تكريس جهده في غير الادب الليبي هو نوع من التجاوز عن‌الواقع الذي يلحّ على العناية بأدب ما يزال بحاجة الى الكثير من الرعاية والاهتمام . ففي الوقت الذي تزداد فيه البلاد العربية الاخرى تدعيما لنهضتها الادبية والفكرية كان الادب الليبي ما يزال طفلا قابعا في المهد ، وان كل ما كان لدينا في حقل الادب من انتاج ما يزال مقصورا على بعض من الانتاج الشعري ، وحتى هذا الشعر كان مبعثرا في الصحف وغير مجموع أو متداول بين الناس . وهو بهذه الخصائص يعتبر ميدانا بكرا من ميادين النقد والبحث والدراسة . وقد وجد التليسي في شعر ( أحمد رفيق المهدوي ) ما يثير انتباهه كدارس وناقد متذوق للشعر ، وبهذه الروح أقبل على دراسة الشاعر بشكل واف ومستفيض أحاط بنواحي نشاطه الشعري احاطة واسعة ووضعه على محكّ النقد المقارن لبعض من الشعراء في المشرق وذلك من خلال سلسلة من الاحاديث اذيعت في حينها من محطة الاذاعة الليبية ثم جمعها بعد ذلك في كتاب اسماه ( رفيق شاعر الوطن ) ، وقد اعتبرت هذه

---

( ١ ) خليفة محمد التليسي ، من مقدمة كتابه « رحلة عبر الكلمات » ص ٥ .

الدراسة عند صدورها ( ١٩٦٥ ) تقييما منهجيا لشعر رفيق وبحثا متقصيا حدد معالمه الشعرية وكشف بموضوعية عن نقاط الضعف والقوة في رحلته الشعرية الطويلة . وقد حاز هذا الكتاب حين صدوره على ترحيب من قبل معظم المثقفين . أقول هذا وان رأى البعض ان المؤلف قد استخدم منهجا صارما ، وسلك سبيلا توخى فيه الشدة في التقويم والنقص دونما مراعاة للظروف التي اكتنفت انتاج الشاعر في الزمن والعصر والبيئة . وقد أثار الكتاب نقاشا كثيرا دفع احدهم الى ان يرد بثلاثة مجلدات دفعة واحدة !

ومهما يكن من أمر فاننا ، اذا استثنينا كتابه « الشابي وجبران » ، يبقى لمؤلفه « رفيق شاعر الوطن » المكانة الممتازة في ميدان الدراسة الادبية النقدية ، وما يزال الكتاب مرجعا للدارسين وعمدة ينير الدرب أمام الباحثين في الادب الليبي المعاصر عامة والجانب الشعري منه خاصة .

وبالاضافة الى الجهود التي بذلها التليسي في ميدان البحث الادبي ، وكان أبرزها تلك التراجم التي كتبها عن شخصيات اشتهرت في الآداب العالمية والتي نشر قسما كبيرا منها في « الاسبوع الثقافي » تحت عنوان « كراسات أدبية » ، ظل وثيق الصلة بالمشاركة المستمرة في اثارة العديد من القضايا الادبية . وقد جمع ما نشره في هذا الباب في كتاب قيم أسماه « رحلة عبر الكلمات » ( ١٩٧٣ ) . وهذه الجهود سواء أكانت في ميدان التراجم الشخصية أو في ميدان البحث الادبي تعتبر في حد ذاتها كافية للدلالة على جدية صاحبها وتمكنه من تثوير بعض القضايا وارتياد مجالاتها البكر ، غير ان التليسي قد تحول الى ميدان الترجمة ، وهو ميدان غير جديد بالنسبة اليه . فقد سبق له ان كرس قسما من جهوده في مجال التعريف بالادب الايطالي ، وقد اتخذ هذا أشكالا عدة برزت في مبدأ الامر في كتابته لعدة ابحاث ومقالات نشرها في الصحف المحلية للتعريف بالكاتب الايطالي الشهير ( لويجي بيراندللو ) ثم أعقبها بترجمة لبعض أعماله القصصية والمسرحية ، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مجموعة قصصية له ومسرحية بعنوان « الفنان والتمثال » ، ثم نجده يشغل نفسه في تعزيز المكتبة الليبية بالكتاب المترجم ، ونحن نعلم ـ بادىء ذي بدء ـ انه اتجه الى هذا المنحى من مناحي الترجمة مدفوعا بغيرة صادرة عن شعوره بالخوف من ان تاريخنا القومي قد بدأ يندثر في غياب الحس التوثيقي لدينا ، وان أقرب الاحداث الينا لا يمكنك ان تعثر على صورة حقيقية وتاقية دقيقة لها الا في التسجيلات والوثائق العسكرية الايطالية (٢) . ومن أجل هذا نراه ينقل عن اللغة الايطالية بعض المؤلفات القيمة الزاخرة بالوثائق والتي يعني مؤلفوها الايطاليون بالتاريخ ليبيا والتونيق لها في مراحل مختلفة من عصورها . نذكر منها كتاب «طرابلس من ١٥١٠ ـ ١٨٣٥» وهو من تاليف (كوستانزو بيرينا ) ، وكتابين آخرين بعنوان « طرابلس تحت حكم الاسبان وفرسان مالطه » و « ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ » ، وهذان الكتابان من تاليف اتوري روسي ، ثم كتاب رابع بعنوان « ليبيا اثناء العهد العثماني الثاني » لفرانشيسكو كورو ، وغيرها من الكتب التاريخية التي تشكل بحق اضافة هامة لمكتبتنا الوطنية .

وما زال التليسي يعمل بدأب للكشف عن جوانب أخرى من تاريخنا الوطني ، وان جهوده في هذا السبيل ستظل على الدوام مقرونة بالحاجة الملحة لتبديد سحب الاهمال والنسيان عن جوانب من تاريخنا الذي ما يزال ـ رغم الجهود الجادة ـ يحتاج للمزيد من العناية والاهتمام .

والى جانب اهتمام التليسي بنقل الكتب الايطالية التي تعنى بمختلف مراحل تاريخنا الوطني ، الى جانب هذا الاهتمام المفيد والجاد نراه يدلي بدلوه في ميدان البحث التاريخي الذي عني فيه ببعض جوانب من تاريخنا ، وهي لا تقل أهمية عن جهوده المبذولة في ميدان النقل والترجمة ، وكتابه « ما بعد القرضابية » يعد مرجعا خصبا لحلقة غامضة من حلقات الجهاد الوطني الذي خاضه الشعب الليبي ضد الاستعمار الايطالي ، ويأتي كتابه الثاني « معجم معارك الجهاد في ليبيا » ( ١٩١١ ـ ١٩٣١ ) ليكمل خطواته التي بدأها في ميدان الترجمة والتأليف لمسيرة النضال الوطني . ويضم الكتاب في دفته « كل ما وقع حصره وتسجيله من المعارك والوثائق الحربية منذ سنة ١٩١١ حتى نهاية المقاومة سنة ١٩٣١ » (٣) ، وهو جهد علمي كبير يضعه التليسي بين أيدي الباحثين والمؤرخين . وليس من شك في ان هذا الكتاب يعتبر أهم المراجع التي تعنى بالتوثيق ورصد معارك الجهاد الليبي معركة معركة وتحديد مواقعها وتاريخ وقوعها وذلك على مدار عشرين عاما من النضال الوطني المرير !

---

( ٢ ) نفس المصدر السابق ، ص ٦٢ .

( ٣ ) خليفة محمد التليسي (المقدمة) « معجم معارك الجهاد » ص ٨ .